بيت الجَدَّين

تأليف: عباده تقلا

رسم: سامر غانم

أَغْلَقَتِ الأُمُّ سَمّاعَةَ الهاتِف، ثم نَظَرَتْ باتّجاهِ ابْنَتِها مُرَدِّدَةً بِصَوْتٍ يَشوبُهُ الكَثيرُ منَ الأَسَفِ: «سَيَنْتَقِلُ جَدّاكِ إلى بَيْتِهِما الجَديدِ بَعْدَ أَقَلَّ منْ شَهْرَيْن!»
«هذا يَعْني أَنَّ زِيارَتَنا لهما بَعْدَ يَوْمَيْنِ سَتكونُ المَرَّةَ الأَخيرَةَ التي أَرى فيها ذلك البَيْتَ!» قالَتْ هِبَةُ بِتَأَثُّرٍ شَديدٍ.

هَزَّتِ الأُمُّ رَأْسَها مُؤَكِّدَةً ثم دَخَلَتْ إلى غُرْفَتِها.
في تِلْكَ اللّحْظَةِ غابَتْ كُلُّ الصُّوَرِ عن ذِهْنِ هِبَةَ لِتَفْسَحَ المجالَ لِصورَةِ ذلكَ البَيْتِ الكَبيرِ الذي احْتَضَنَ سَنَواتِ طُفولَتِها، تَمْتَماتِها، خُطُواتِ المَشْيِ الأولى حَوْلَ نافورَةِ الماءِ الّتي تَتَوَسَّطُ ساحَتَهُ، أُرجوحَتَها وقِطَطَها الصَّغيرَةَ.

هَرَبَتْ دَمْعَةٌ من عَيْنَيْها، وسارَعَتْ لِلاتِّصالِ بِجَدَّتِها سائِلَةً إيّاها إن كانَ بِإمْكانِهما فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ كَيْ لا يَأْخُذوا البَيْتَ مِنْهُما، لكِنَّ الجَدَّةَ أَكَّدَتْ لها أَنّ أَصْحابَ البَيْتِ قَرَّروا بِناءَ عَمارَةٍ كَبيرَةٍ مَكانَهُ، مِثْلَما هو الحالُ معَ الكَثيرِ منَ البُيوتِ القَديمَةِ في المُدُنِ!
«لماذا يَحْرُمونَنا من بَيْتِ طُفولَتِنا؟ أَلَيْسَ لَدَيْهِمْ مِساحَاتٌ أُخْرى لِبِناءِ ما شاءَ لَهُمْ منَ الأَبْنِيَةِ؟» قالَتْ هِبَةُ وهِيَ تَمْسَحُ دُموعَها.

لَم تَحْتَمِلِ البَقاءَ وَحيدَةً فَأَسْرَعَتْ بالدُّخولِ إلى غُرْفَةِ أُمِّها لِتَجِدَها جالِسَةً تُقَلِّبُ تِلكَ الصُّوَرَ التي جَمَعَتْها معَ ذلك البَيْتِ الذي شَهِدَ ولادَتَها هيَ وإخْوَتِها.
«هذه صورَتي وأنا أَسْتَمْتِعُ مع أَوَّلِ أُرْجوحَةٍ صَنَعَها لي جَدُّكِ، كُنْتُ أَصْغَرَ من شَقيقَتِكِ لُبْنَى، وهذه صورَتي معَ أَخْوالِكِ وأَوْلادِ الجيرانِ ونَحْنُ نَلْعَبُ لُعْبَةَ المُعَلِّمَةِ والتَّلاميذِ في ساحَةِ البَيْتِ الكَبيرَةِ، أمّا هذه فَصورَتي معَ جَدَّتِكِ في المَطْبَخِ.»

كانَتْ هِبَةُ قد شاهَدَتْ كُلَّ تِلْك الصُّوَرِ مِنْ قَبْلُ، وسَمِعَتْ تَعْليقَ أُمِّها عَلَيْها، لكِنَّها في هذه المَرَّةِ أَحَسَّتْ بِوَقْعٍ مُخْتَلِفٍ تَماماً، «آه لو كانَ بِإِمْكاني القَفْزُ داخِلَ إحْدى تِلْكَ الصُّوَرِ، لِأَلْتَصِقَ بِالبَيْتِ الذي يُشْعِرُني بالْهُدوءِ والطُّمَأْنينَةِ أَكْثَرَ من أَيِّ مَكانٍ آخَرَ في العالَمِ.» قالَتْ هِبَةُ وهي تَمْسَحُ دُموعَها.

بَعْدَ يَوْمَيْنِ كانَتْ هِبَةُ مع أُمِّها وَأَخَوَيْها في مَنْزِلِ الجَدَّيْنِ. انْدَفعوا جَميعاً ودُموعُهُمْ تَسْبِقُهُمْ لِمُعانَقَةِ المَكانِ وساكِنيهِ. لكنَّ الجَدَّ قالَ بِحُنُوٍّ وَحَزْمٍ: «نُريدُها إجازَةً مُمْتِعَةً بِكُلِّ المَقاييسِ، ولْتَكُنْ البِدايَةُ مَعَ لُعْبَةٍ جَديدَةٍ. بِما أَنَّ البَيْتَ سَيَتَعَرَّضُ لِلْهَدْمِ بَعْدَ مُغادَرَتِنا له لِذلِكَ سَنَلْعَبُ لُعْبَةً تَتَعَلَّقُ بِهِ. باخْتِصارٍ سَيَتَذَكَّرُ كُلُّ واحِدٍ مِنّا عَمَلاً أَساءَ فيه إلى هذا البَيْتِ بِقَصْدٍ أَوْ بِدونِ قَصْد، وسَيَقومُ مُباشَرَةً بِعَمَلٍ مُناقِضٍ له تَماماً. ما رَأْيُكُمْ؟» سَأَلَ الجَدُّ.

ابْتَسَمَتْ هِبَةُ وقالَتْ: «أَمْرٌ جَميلٌ، وأَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَجْعَلُ البَيْتَ راضِياً عَنّا تَماماً.»

«ما دُمْتِ أَشَدَّ المُتَحَمِّسينَ لِلْفِكْرَةِ فَلْتَكُنِ البِدايَةُ مِنْ عِنْدِكِ.» قالَ الجَدُّ ضاحِكاً، بَيْنَما تَوَجَّهَتْ أَنْظارُ الجَميعِ نَحْوَ هِبَةَ.

صَمَتَتْ هِبَةُ لِلَحَظاتٍ ثُمَّ بَدَأَتْ كَلامَها، «تَعْلَمونَ جَميعُكُمْ أنَّ الحَديقَةَ الجَميلَةَ هي أَكْثَرُ ما أُحِبُّ في هذا البَيْتِ، ولكِنَّني في الإِجازَةِ الماضِيَةِ وَقَبْلَ مُغادَرَتِنا بِساعاتٍ، رَمَيْتُ الكُرَةَ بِدونِ قَصْدٍ مِنّي بِاتّجاهِ شَجَرَةِ الياسَمينِ الصَّغيرَةِ فَكَسَرْتُها و...»

لم تُكْمِلْ هِبَةُ كَلامَها بلْ خَفَضَتْ رَأْسَها والْتَزَمَتِ الصَّمْتَ. ضَحِكَتِ الجَدَّةُ وهي تَقولُ: «لا مُشْكِلَةَ فَلَقَدْ زَرَعْتُ واحِدَةً جَديدَةً والمَطْلوبُ مِنْكِ الآنَ الاعْتناءَ بِها حتّى انْتِهاءِ العُطْلَةِ.»
«بلْ سَأَعْتَني بِكُلِّ أَشْجارِ الحَديقَةِ ونَباتاتِها.» قالَتْ هِبَةُ بِثِقَةٍ.
«دَوْرُ مَنِ الآنَ؟» سَأَلَ الجَدُّ.

«دَوْري أنا.» قالَ حُسامٌ بِحَماسَةٍ. «في الصَّيْفِ الماضي اِشْتَرَيْتُ الكَثيرَ من صُوَرِ لاعِبي كُرَةِ القَدَم، وفَكَّرْتُ أَنْ أُلْصِقَها على دَفْتَري، لَكِنَّني غَيَّرْتُ رَأْيي عِنْدَما رَأَيْتُ نَوافِذَ البَيْتِ الكَبيرَةَ والْمُلَوَّنَةَ، وتَوَقَّعْتُ أَنْ يَكونَ مَنْظَرُ الصُّوَرِ عَلَيْها أَكْثَرَ جَمالاً، وعِنْدَما أَخْبَرَتْني هِبَةُ أَنَّ تَصَرُّفي سَيُزْعِجُكُمْ جَميعاً، حاوَلْتُ نَزْعَها فَتَمَزَّقَتْ وأَصْبَحَ مَنْظَرُ الزُّجاجِ بَشِعاً جِدًّا.»

«لَقَدْ بَقيْتُ لِساعاتٍ أُنَظِّفُ الزُّجاجَ حتى عادَ نَظيفاً كما كانَ.» قالَتِ الجَدَّةُ.

«سَيَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ الاعْتِناءُ بِنَظافَةِ الزُّجاجِ طِيلَةَ أَيّامِ العُطْلَةِ.»

قالَ الجَدُّ مُوَجِّهاً كَلامَهُ لِحُسامٍ.

جاءَ صَوْتُ الأُمِّ عَميقاً وهادِئاً، «عِنْدَما كُنْتُ طالِبَةً في المَرْحَلَةِ الثّانَوِيَّةِ أَحْبَبْتُ لُعْبَةَ كُرَةِ الطّاوِلَةِ كَثيراً، فوَضَعْتُ لَوْحاً خَشَبِيًّا فَوْقَ بِرْكَةِ الماءِ، ومِنْ ثم دَعَوْتُ صَديقاتي لِلَّعِبِ في المَنْزِلِ، لكنَّ أُمّي نَبَّهَتْني إلى الخَطَأِ الذي حَرَّمَنا مِنْ بُرْكَةِ الماءِ ونافورَتِها وتَرْطِيبِها لِلْأَجْواءِ. اقْتَنَعْتُ بِكَلامِ أُمّي وأَصْلَحْتُ خَطَئي بِشِراءِ مَصابيحَ مُلَوَّنَةٍ مِنْ مَصْروفي لِيُرَكِّبَها أَبي حَوْلَ البُرْكَةِ، وهو الأَمْرُ الذي جَعَلَنا نَسْتَمْتِعُ بِأَضْوائِها الجَميلَةِ في أُمْسِياتِ السَّهَرِ.»

نَظَرَ الجَدُّ باسِماً بِاتِّجاهِ الجَدَّةِ، «كم كانَتْ أَيّاماً جَميلَةً! إنّه دَوْرُكِ الآنَ يا عَزيزَتي.»

حَوَّلَتِ الجَدَّةُ نَظَراتِها إلى أَرْضِيَّةِ إحْدى غُرَفِ البَيْتِ المُزَخْرَفَةِ بِزَخارِفَ بَديعَةٍ، ثم قالَتْ مُوَجِّهَةً كلامَها إلى الجَدِّ: «أَتَذْكُرُ في أَوَّلِ زَواجِنا كَيْفَ كُنْتُ مُصِرَّةً على تَغْطِيَةِ أَرْضِيَّةِ البَيْتِ بِقِطَعٍ من الموكيت؟ كُنْتُ أَظُنُّها سَتُصْبِحُ أَكْثَرَ جَمالاً، لكِنَّني بَعْدَ مُدَّةٍ اكْتَشَفْتُ كم كُنْتُ مُخْطِئَةً، وَأَدْرَكْتُ أَنْ لا أَرْضِيَّةَ في العالَمِ أَجْمَلُ من هذه الأَرْضِيَّةِ التي حَرَصْتُ مُنْذُ ذلك الوَقْتِ على الاعْتِناءِ بِنَظافَتِها كَيْ تَبْقى مُتَأَلِّقَةً دائِماً.»

«وأَنْتَ ما الذي تُخْفيهِ عَنّا؟» سَأَلَتِ الجَدَّةُ الجَدَّ.

«في سَنَواتِ شَبابي الأَوَّلِ كانَتْ هُناك
شَجَرَةُ كَبّادٍ تُغَطّي نافِذَةَ غُرْفَتي مِمّا سَبَّبَ لي
اِنْزِعاجاً كَبيراً دَفَعَني إلى قَطْعِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ! كانَ تَصَرُّفاً
سَيِّئاً نَبَّهَني أَبي إِلَيْه، فَأَحْضَرْتُ شَجَرَةً صَغيرَةً وَزَرَعْتُها مَكانَ
تِلْكَ الشَّجَرَةِ.»
مَرَّتْ أَيّامُ الإِجازَةِ بِسُرْعَةٍ لكِنَّها نَجَحَتْ في تَوْطيدِ عِلاقَةِ الجَميعِ بِذَلِكَ البَيْتِ،
وشَعَروا أَنَّهمْ يَكْتَشِفونَ المَكانَ لِلْمَرَّةِ الأولى.

«مُنْذُ كُنْتُ صَغيرَةً وأَنَا أَسْتَمْتِعُ بِالنَّظَرِ إلى هذه الأَسْقُفِ العالِيَة، إنَّها تُشْعِرُني بِالرّاحَةِ والسُّكونِ وأَفْتَقِدُها في البُيوتِ الحَديثَةِ.» تَقولُ الأُمُّ لابْنَتِها.

«مَعَكِ حَقٌّ» تُعَلِّقُ هِبَةُ مُبْتَسِمَةً، «ولكِنّي أُحِبُّ ساحَةَ البَيْتِ أَكْثَرَ، فَهُناكَ يُمْكِنُني أَنْ آخُذَ نَفَساً عَميقاً يَمْتَزِجُ الهَواءُ فيه بِرائِحَةِ الياسَمينِ والوَرْدِ الجُوريّ.»

عِنْدَما حانَتْ لَحْظَةُ مُغادَرَةِ الصِّغارِ مَعَ أُمِّهِمْ ناداهُم الجَدُّ فَالْتَفَتوا إِلَيْهِ،

«فَقَطْ أُحِبُّ أَنْ أُخْبِرَكُمْ شَيْئاً صَغيراً قَبْلَ أَنْ تُسافِروا، لَقَدْ دَفَعَني حُبُّكُمْ الكَبيرُ لِهذا البَيْتِ العَتيقِ إلى إِقْناعِ أَصْحابِهِ بِبَيْعِهِ لي، كما قَرَّرْتُ أنا وَجَدَّتُكُم أَنْ نُبْقِيَهُ لَكُمْ بَعْدَ...»

لم يَسْمَحِ الأَطْفالُ وَأُمُّهُمْ لِلْجَدِّ أَنْ يُكْمِلَ كَلامَه بَلِ انْدَفَعوا نَحْوَهُ وتَشَبَّثوا بِهِ وهم يَقولونَ: «شُكراً يا جَدَّي... أَطالَ اللهُ في عُمْرِكَ أَنْتَ وَجَدَّتي.»

ابْتَسَمَ الجَدُّ وهو يُعانِقُ أَحْفادَهُ، «سَتَعْتَنونَ بِهِ جَيِّداً، وَتَتَذَكَّرون دائِماً أَنَّ هذا البَيْتَ ارْتَبَطَ بِتاريخٍ طَويلٍ، اِبْقوه بَيْتاً لَكُمْ ولِأَوْلادِكُمْ وأَحْفادِكُمْ وَكُلِّ ضُيوفِكُمْ، أُريدُهُ أَنْ يَنْبُضَ بِالْحياةِ دائِماً، عِدوني بِذَلكَ الآنَ.»

«نَعِدُك يا جَدّي.» خَرَجَ الوَعْدُ بِصَوْتٍ واحِدٍ قَوِيٍّ أَفْرَحَ الجَدَّ والجَدَّةَ، وأَدْخَلَ سُروراً كَبيراً إلى قَلْبِ البَيْتِ القَديمِ.